

عصر الفتح

- بداية الفتح.
- الاقتتال الداخلي.
- الثورات العرقية.
- الفتنة اليمانية المضرية.



obeikandi.com

بداية الفتح

لم تخل الأندلس الإسلامية عبر تاريخها المديد من المماحكات، والانتقام للذات، والهيام بالسلطة، بغض النظر عما قد يجره هذا السلوك من آثار ذات نتائج مدمرة على الأمة، إذ لم يتعضوا بما حلَّ بالأمم التي سبقتهم من القوط وغيرهم، والذين كان هذا السلوك سبباً في زوال سلطانهم على أيدي العرب أنفسهم.

فقد اعتاد حكام الأقاليم في بلاد القوط على إرسال بناتهم إلى «لذريق»، وهو لقب اعتادوا إطلاقه على كل رئيس لهم، وكان الغرض من ذلك تأديبهن بالآداب الملكية؛ لكي يتم تزويجهن بأكفأهن من الرجال، وكان ضمن تلك الفتيات بنت والي سبتة واسمه «جوليان»، وكانت ممشوقة القوام جميلة المنظر، تتشئ في مشيتها كأنها غصن بان، وعندما لمحها «لذريق» تاقت نفسه إليها فواقعها، فكانت تلك الواقعة أحد الأسباب التي سهلت دخول المسلمين إلى الأندلس وقيام دولة أرسست قواعدها قرونا، فكانت الجسر الذي تدفقت من خلاله صنوف المعرفة؛ لينعم العالم حتى يومنا هذا بنتائج النهضة الصناعية.

لقد قرر جوليان الانتقام لكرامة ابنته، فشجع المسلمين على غزو الأندلس وبيئ لهم مناطق ضعف عدوهم، وكان عوناً لهم مدفوعاً بلذة الانتقام حتى لو كان سقوط غريمه نهاية للملكة وملك أبنائه من بعده، اللهم إلا إذا اعتقد أن المسلمين سيكتفون بما سيقع بين أيديهم من غنائم؛ ليعودوا أدراجهم بعد أن يضعف خصمه على أيديهم فتكون الغلبة له فيما بعد.

فتح المسلمون الأندلس على يد طارق بن زياد الليثي الذي كان والياً على طنجة من قبل موسى بن نصير، وقد نقلت لنا بعض المراجع العربية ما تأجج في قلب القائد الفذ موسى ابن نصير من حسد بعد أن علم بانتصارات طارق؛ خشية أن ينسب ذلك إلى طارق دونه، فما كان منه إلا أن أمره بالتريث عن مواصلة الفتح وتوعده إن هو خالف أمره.

وكتب موسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في الشام ينسب الفتح إلى نفسه، وركب في ثمانية عشر ألفاً من الجند وسار بهم إلى الأندلس وسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكه طارق وفتح مدناً جديدة، ولقي طارقاً في مدينة «إسترقة» بالقرب من طليطلة

فضربه بالسوط ووبخه وأظهر ما في قلبه عليه من حسد، ويقال: إنه همَّ بقتله مطالباً إياه بما حازه من مال وما غنمه من غنائم، وتذكر بعض المصادر أن من ضمن تلك الغنائم مائدة نبينا سليمان عليه السلام، وقد كان طارق قد خلع من أرجلها رجلاً وخبأها عنده، فسأله موسى عنها، فقال: لا علم لي بها وهكذا أصبتها، فأمر موسى بأن يُجْعَلَ لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها، فأخَلَّ بها. وبعد ذلك عفا عنه لحاجته إليه.

لو أنّ موسى بن نصير سمح لطارق بالمسير لكانت الأندلس أسير فتحاً ولواصل المسلمون بقيادة طارق الزحف إلى الشمال الأندلسي، لكنّ الحسد حرم المسلمين من فرصة كانت قريبة المنال.

واصل موسى فتح المزيد من المدن والقرى وانضوى طارق تحت لواء قائده، فحققت المزيد من الانتصارات وكلُّ منهما يضمّر الضغينة لصاحبه ويظهر ما لا يُبْطِن، وكانَّ حالهما قد تجسد في قول المتنبي عن كافور الإخشيدي:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحكاً من رجائيا

وما أحسب طارق بن زياد إلا متسائلاً كما تساءل شاعر الأندلس ابن زيدون الذي جاء بعده حيث يقول:

أرى نبوة لم أدر سر اعتراضها وقد كان يجلو عارضَ الهمَّ أن أدري
جفاءً هو الليلُ ادلهمَّ ظلامُهُ فلا كوكبٌ للعذرِ في أفاقه يسري
هب العزلُ أضحى للولاية غايةً فما غايةُ المويِّ من الظل أن يكري

وبينما كان موسى بن نصير يواصل انتصاراته ويتسع الأفق بين ناظريه ويستخدم دهاءه وحنكته الحربية في التوسع دون عوائق كبيرة، وتتجلى أمامه رؤى كثيرة وقد خطط للمزيد من التقدم شمالاً وشرقاً، ولم لا والجيوش الإسلامية تظفر أينما حلت والشعوب تتسابق في اعتناق الإسلام فتكون رِفْداً له ضد مناوئيه من الأمم التي لم تصلها رسالته، كما أن الإسلام في ذروة سنامه وقد تخطى غيره من الأمم بمراحل، فقد كانت أوروبا آنذاك مختلفة المقاصد والغايات، تمزقها الأهواء والخلافات، وأضعف من أن تقف أمام جيوش فتية اجتمعت حول

رسالتها معظم شعوب العالم القديم، فَحَلَمَ موسى في افتتاح أوروبا من الغرب والاتصال بالجيوش العربية الزاحفة من الشرق وقد كان أمراً ممكناً وليس بعيد المنال، ولكن بينما هو منهمك في التخطيط لبلوغ مرآه إذا برسول الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه «مغيث الرومي» يحل ضيفاً عليه ويبلغه رسالة الخليفة بالتخلي عن التوغل بالمسلمين في بلاد لا يعرف الخليفة الكثير عنها، ويأمره بالقفول إليه وَحَمَل ما غنم من مال وسبايا إلى الخليفة.

لكن موسى أراد الاستمرار طالما أن الانتصار يتحقق تلو الانتصار، وطالما أنه قد عرف مجاهل الأرض ومفاوزها، وتمرس جنده على الطعان فوق ترابها، وعلم الكثير عن مواضع ضعف عدوه وأسلوب قتاله، فحاول استمالة مغيث رسول الخليفة وأغراه بالمشاركة في الغنيمة فنجح، وسار معه في استكمال مهمته وفتح المزيد من الأرض، ومنها قرطبة التي فتحت على يد مغيث. وذكر الحجاري أنه لما حصل بيد مغيث مُلك قرطبة عندما سار مع موسى بن نصير، رأى بين نسائه جارية كأنها بينهن بدر بين نجوم، وهي تكثر التعرض له بجمالها، فوكل بها من هدهدا بالنكال إن لم تقر بما عزمت عليه في شأن مغيث، فقد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته له من المكر في شأنه، فأقرت بأنها أكثرت التعرض؛ لتقع بقلبه، إذ حسنها فتان، وقد أعدت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها.

وبينما موسى بن نصير كذلك، إذا برسول آخر للخليفة الوليد بن عبد الملك يقال له «أبو نصر» يصل إليه حاملاً رسالة من الوليد، فيها الوعيد الشديد إن هو تمادى في التأخير، فعزم على العودة مضطراً وليس للسبب الذي أورده ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة» والذي ذكر أن موسى وجد صنماً ضخماً قد كتب عليه بالعربية: يا بني إسماعيل، انتهيتم فارجعوا، فهاله ذلك وقال: ما كتب هذا إلا لمعنى كبير.

مرة أخرى نعود لقرار مصيري جديد اتخذته الوليد بن عبد الملك كان منعرجاً تاريخياً للعالم أجمع، فربما حرم الوليد بهذا القرار أوروبا من الإسلام، وحرم الإسلام من أوروبا، فعلام أحجم وما عهدناه جباناً؟ فهل نعزو ذلك إلى خوفه على المسلمين وكفى؟ قد يكون الأمر كذلك، وقد يكون غير ذلك، فنعزوه إلى ما نمتي إلى علم الوليد من خلاف بين موسى وطارق وخشيته من الفتنة بين المسلمين في بقاع بعيدة عن القيادة المركزية.

أمّا آخرون فيرون الأمر يقصر عن الحرص على مصالح المسلمين إلى أقرب من ذلك، فيرون أنّ الباعث لدى الخليفة الوليد ما بلغه من كثرة الأموال والغنائم التي حازها موسى، وكذا السبايا الأندلسيات وهنّ من هنّ في الجمال، ولطافة المعشر، وبياض البشرة ونعومتها، لا سيما أنّ الوليد على دراية بما جبلهنّ الله عليه من جمال من خلال ما أرسله موسى إلى الوليد من سبايا البربر، فقد بعث في الخمس بعشرين ألف سبية ثمّ أردفها بعشرين ألف أخرى، وهناك من يرى أنّ باعث الوليد على اتخاذ خطوة الإحجام خوفاً من تفرد موسى بن نصير بما غنمه من أرض ومال، إضافة إلى ما زرعه في قلوب قاطني تلك الأصقاع من خوف بطشه والطمع في نواله، فهو الداهية الطماع، والقائد الشجاع، فمن غير الحكمة في ظن الوليد تركه بعيداً عن عين الخلافة.

ومهما كان الباعث أو البواعث، سواء كان مصلحة عامة، أو مالأ ونساء، أو خوفاً على سلطان، فالقرار كان خطأ ترتب عليه فوات فرصة قد تكون مفيدة للعالم أجمع، وحسبنا أن نعلم أنّ من تركهم موسى منهوكي القوى متشرذمين في الجبال من أعدائه كانوا نواة لمملكة هزمت المسلمين وأخرجتهم من الأندلس بعد مئتين من القرون.

قال الحجاري في كتابه المسهب: إنّ الإفرنج اجتمعت إلى ملكها، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع عن العرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلّة عدتهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألاّ تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنّهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نوايا تغني عن العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين، والبربر والعرب، والمضرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء.

مرة أخرى يظهر التاريخ ليكشف لنا عن المماحكات والدسائس والانتقام الشخصي ليفضي ذلك إلى قرارات مصيرية اتخذها هذه المرة سليمان بن عبد الملك بن مروان

الذي تولى أمر المسلمين بعد أخيه الوليد، ليقف موقفاً آخر من موسى بن نصير الذي ذُكر أنه أدرك الوليد في آخر أيامه وهناك من يذكر أنه لم يصل الشام إلا بعد تولي سليمان الخلافة، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك فالأمر سيان.

في أثناء عودة موسى بن نصير إلى الشام برفقة رسولي الخليفة مغيث ونصر كان حاكم قرطبة أسيراً بيد مغيث، فطلب موسى الأسير من مغيث فأبى أن يسلمه إليه وقال: لا يؤديه للخليفة سواي، وكان يُدلى بولائه للوليد، فهجم عليه موسى وانتزعه منه، فقيل له: إن سرت به معك حياً ادعاه مغيث والعلاج لا ينكر قوله، ولكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث وصار إلباً مع طارق الساعي عليه، فجمع على نفسه ضغينة اثنين مسموعي الكلمة، وهناك من يقول أيضاً: إن سليمان طلب من موسى الإبطاء في الوصول إلى الشام بعد أن علم بقرب وفاة أخيه الخليفة؛ رجاء أن يقدم عليه في صدر خلافته، فأبى موسى وجد في السير حتى قدم والوليد حيّ فسلم إليه الأخماس والغنائم ثم مات الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسي الخلافة.

في المدة القصيرة التي قضاها موسى في أثناء خلافة الوليد كان طارق بن زياد ومغيث يحرضان سليمان بن عبد الملك على موسى ويوغران صدره عليه انتقاماً لأنفسهم، حيث أخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلاج صاحب قرطبة وقالوا له: إنّه قد غلّ جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله.

وبعد تولي سليمان الخلافة وجدّه ضغيناً عليه، فأغظ عليه واستقبله بالتأنيب والتوبيخ، واعتذر له موسى ببعض العذر، وسأله عن المائدة فأحضرها، فقال له: زعم طارق أنه هو الذي أصابها دونك فقال: لا، وما رأها قط إلاّ عندي، فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرّجل التي تنقصها، فسأله فقال: هكذا أصبتها وعوضتها رجلاً صنعتها لها، فقام طارق وأحضر الرّجل الأصلية؛ ليؤكد للخليفة أنه هو الذي أصابها، فعلم الخليفة سليمان صدق طارق وكذب موسى، فأمر بتقصي حسابه وعزله عن جميع أعماله، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك، وحبسه، فاستجار بصديقه «يزيد بن المهلب» من نقمة سليمان وكان من خلاصه وذوي النفوذ عنده، فقال: لم أزل أسمع عنك

أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومدارة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس وجعلت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزاخر، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلفت أنت بلاداً أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقىت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهده وأنه الولي بعد أخيه وقد أشرف على الموت لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقىت بيدك إلى التهلكة وأحققت مالكك ومملوكك، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت إذا جاء الحين غطى على العين، وقال: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد ويقع في الفخ وهو يرى عينه، وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى.

وهناك من يذكر أنه قد عفا عنه وظل كذلك حتى مات -رحمه الله- وهو في الثمانين من عمره في طريقه إلى الحج برفقة الخليفة سليمان، وهناك من ذكر أنه قد عفا عنه لكنه لم يُعفه من الغرامة المالية وأغرمه غراماً عظيماً حتى اضطره سؤال العرب المعونة. نهاية مؤسفة لقائد عظيم وحرمان للمسلمين من مواصلة الخير للبشرية بسبب تنافس وأحقاد ومطامع شخصية كان موسى بن نصير أحد أبطالها، فمع حنكته وقيادته الفذة وقدرته الإدارية على التعامل مع الشعوب والثقافات المختلفة، إلا أنه فشل في مداراة الدنيا واتخاذ القرار الصائب في التعامل مع مالكة ومملوكه كما ذكر صديقه يزيد. وصدق الشاعر حيث يقول:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

وقال آخر:

الحر عبد إن طمع والعبد حر إن قنع

موسى -رحمه الله- ربما طمع وغلّ، فهناك رواية تقول: إن موسى كان وزيراً لبشر بن مروان فلما تولى الحجاج ولاية العراق سنة خمسة وسبعين اتهم موسى باختلاس أموال البصرة وكاد يسقط بين يديه ولم ينقذه سوى صديقه عبد العزيز بن مروان، وربما أخطأ في التعامل مع طارق ومغيث، لكن المؤكد أنه لم يشق عصا الطاعة على الخلافة ولم يدر

بخلده ما لاه عليه صديقه يزيد من القدوم وعدم الامتاع، وقد يكون أصله قد حال دون تفكيره في الولوج إلى مقام غير مقامه في وقت كانت العصبية العربية هي السائدة، فلم يكن سليل ملك كما هو حال بني مروان الذين أسسوا لهم ملكاً في الأندلس فيما بعد، فما هو إلا مولى تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز عندما ابنتى بها الوليد بن عبد الملك، وقد ذكر المقرئ في «نفح الطيب» أن موسى بن نصير -رحمه الله- يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه، وهو الحقد والحسد، والمنافسة لا تخلو من ذلك.

أنشد بعض الرؤساء:

وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

فقلب المعنى الرئيس فقال:

وليس رئيس القوم من يترك الحقد

ثم قال: إن السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة بهما اجترئ عليه ونسب للضعف والغفلة، وهل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه وعدوه لا يغفل عنه وحاسده لا يمنعه عنه إلا الراحة منه وهو في وادٍ آخر عنه، ولله در القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلل مُضِرُّ كوضع السيف في موضع الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً، لا يزن الواجبة لناقص، ولا يزن ناقص لوافٍ.

أما أنا فلا أتفق مع ما أورده المقرئ، فليس من الكياسة الحقد والحسد، وليس من الغفلة الطيبة والتسامح، وشاهد الحال ينبئ عن ذلك، فدعونا مع عجز البيت دون تحريف ودعونا نتذكر قول الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

فالصفح والتجاوز والتسامح مع عدم الغفلة أساس الكياسة وزرع المحبة والإخاء.

وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نصير فعدبته واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق وكان مغيث قد تغير عليه، فاستشار سليمان مُغيثاً في تولية طارق وقال له: كيف أمره بالأندلس؟ فقال: لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاء لاتبعوه ولم يروا أنهم كفروا، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبدا له في ولايته، فلقية بعد ذلك طارق فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصيانى ولم تُضمر في الطاعة ما أضمرت، فقال مغيث: ليتك تركت لي العليج فتركت لك الأندلس، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه مَلِكَ قرطبة الذي حصل في يده، فلم يُمكنه من ذلك فأغرى به سيده موسى بن نصير فقال له: يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس وليس في أيدينا مثله، فأبي فضل يكون لنا عليه؟ فكان من موسى بن نصير مع العليج حاكم قرطبة ما ذكر.

بعدهما تجاوزنا الحديث عن موسى بن نصير ظهر لنا ابنه عبد العزيز الذي استمر في فتح المزيد من المدن الأندلسية، وتعود لنا السلوكيات الشخصية والأحقاد لتلعب دوراً سلبياً في الحياة الأندلسية، فقد ذكرت المصادر أن عبد العزيز بن موسى قد تزوج بزوجة لذريق ملك الإفرنجة المهزوم المكناة «أم عاصم» وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح وباءت بالجزية وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده، ويقال: إنه سكن بها في كنيسة في أشبيلية وأنها قالت له: لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق - زوجها الأول - أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم فعل ذلك مما يزيق بقدرة عندها فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فينحنون وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له فرضيت بذلك.

وقد نما إلى علم الخليفة سليمان ما فعله الأمير عبد العزيز إضافة إلى سخطه على أبيه وتوجهه ريبة منه بعد فعلته بأبيه، فأغرى جماعة من الجند فثاروا عليه منهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي، فقتله بعضهم وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك، وكان مقتله في المسجد وهو قائم لصلاة الصبح، وكان المسجد بجوار داره وقد بقي دمه في المسجد زماناً رحمه الله رحمة واسعة.

بهذه الواقعة تدخل النساء على الطريق في الحياة الأندلسية التي لعبن فيها دوراً كبيراً عبر تاريخه، وقد يكون لهن دورٌ في الحياة السياسية الأندلسية في عهد موسى وطارق لكن التاريخ غفل عن تسطيره فلم يصل إلينا، فـعبدالعزیز بن موسى الذي واصل الفتح بعد أن ترك له أبوه حكماً يمكن أن يسوسه بالكثير من الحكمة ليورثه أبناءه من بعده، ضعف أمام زوجة غريمه وغريم أبيه، ففتح باباً للمتربصين من أعوانه لا أعدائه، وفي ساعة غفلة وثب عليه جنده وليس جند أعدائه فقتل -رحمه الله- ليبدأ من ذلك التاريخ عصر من عصور الصراع الميداني الداخلي.

كان والي إفريقية مفوضاً من قبل الخليفة لتعيين من يراه على الأندلس، وتولى الأندلس بعد عبدالعزیز بن موسى نحو سبعة عشر أميراً في نحو أربعين عاماً لم يورثها أحد منهم لأحد من ذريته أو أسرته ولم يتجاوز أحدهم لقب أمير، لكن الفتن لم تقارق الأندلس.

بعد مقتل الأمير عبدالعزیز اتفق الزعماء في أشبيلية على تولي «أيوب بن حبيب اللخمي» الإمارة، وهو ابن أخت عبدالعزیز، وكان صالحاً في دينه كيساً هدأت الأمور في عهده، لكن والي إفريقية الجديد واسمه «محمد بن يزيد» الذي تولي أمرها بعد عبدالله بن موسى الذي أبعد من قبل الخليفة سليمان رأى في ابن أخت موسى خطراً يجب التخلص منه، فاستبدل به «الحر بن عبد الرحمن الثقفي» والفتنة قد أرسدت قاعدتها منذ استدعاء موسى بن نصير، فوجد الحر فتنة كان عليه إطفائها، فالفتنة الطائفية بين العرب والبربر قد اشتعل فتيلها فوصلت نارها إلى الجيش، ولقد كان قاسياً بما يستوجبه الموقف، ثم غادر بجيشه إلى شمال البلاد فبدأت الدسائس في قرطبة عاصمة حكمه وتعاون بعضهم مع أعداء الأمس ليعود أدراجه بعد أن استرد بعضاً مما خسره المسلمون في شمال البلاد، وها هي الفتن تحرم المسلمين من فرصة أخرى موأتية.

وعندما تولى عمر بن عبدالعزیز الخلافة في الشام رأى أن في أسلوب الحر الثقفي الكثير من القسوة على المسلمين وأن الواجب الديني يتطلب منه أن يستبدل به من هو أكثر رأفة ورحمة، فاختر للإمارة رجلاً تقياً فطناً شجاعاً هو «السمح بن مالك الخولاني»، وربط ولاية الأندلس بالخلافة مباشرة، بدلا من ارتباطها الإداري بوالي إفريقية، وواقع

الحال أنَّ السَّمْح كان عند حسن ظن الخليفة به، فقد كان عادلاً رقيقاً بالمسلمين وغير المسلمين، حفظ للعبيد والفلاحين حقوقهم وقلَّت المماحكات والفتن.

وقد فكَّر الخليفة عمر بن عبد العزيز في إخلاء الأندلس لبعدها وانعزها فأقنعه بعضهم بالتخلي عن الفكرة بسبب تكاثر المسلمين في تلك البلاد، ومات السَّمْح بن مالك وهو يحارب في سبيل الله فاتفق الجميع على تولي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي.

قاد عبد الرحمن الغافقي الجيش الإسلامي متجهاً إلى فرنسا بعد أن اجتاحت كلُّ ما وطئت أقدام حوافر فرسانه من سهول وتلال ووديان ومدن وقرى، فامتلات الأحمال بالغنائم والحلي والجواهر، وحان وقت المعركة الكبرى بين جيش المسلمين والإفرنج في موقعة سماها العرب «بلاط الشهداء» لكثرة من مات خلالها من المسلمين، بينما سمتها المصادر الغربية موقعة «تور» لكون المعركة قد وقعت بالقرب من مدينة يطلق عليها هذا الاسم.

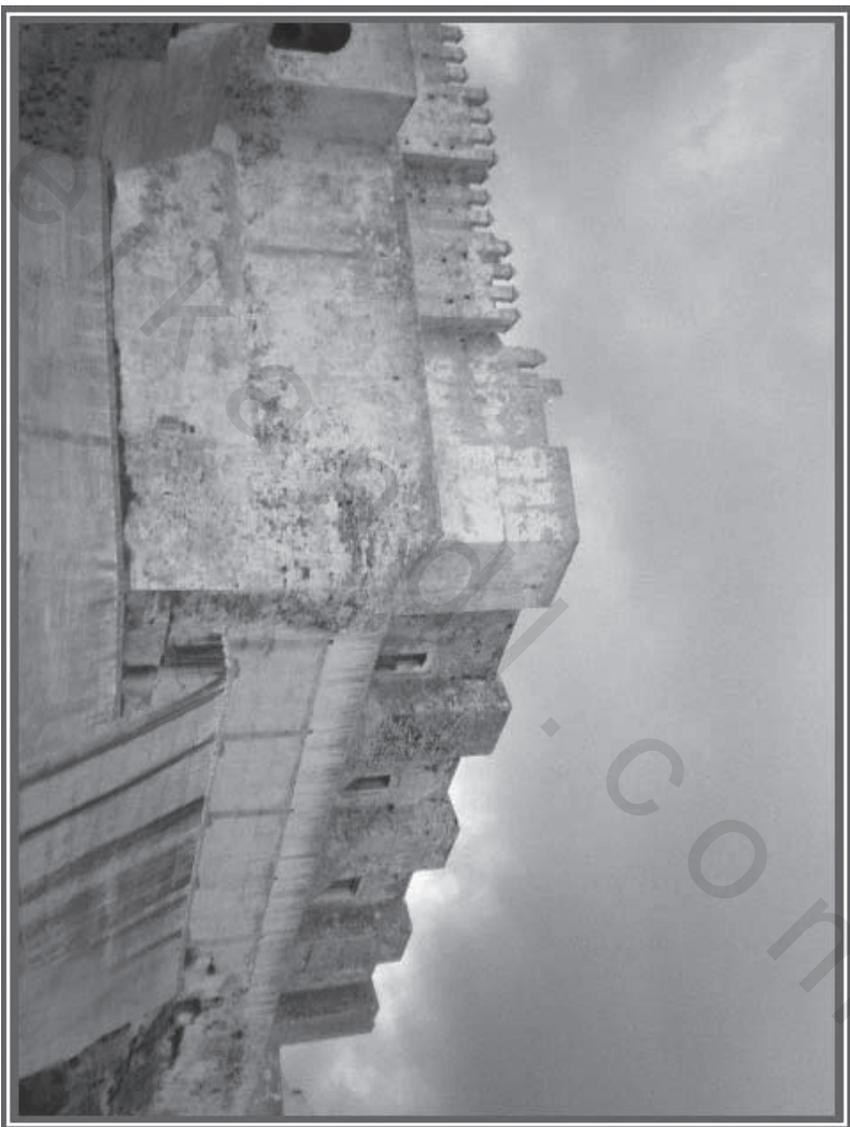
تجلَّت لنا مرة أخرى أنواع من الأسلحة الخفية، منها الطمع والحسد والشقاق والمماحكة في هذه المعركة الفاصلة، فكانت هذه الأنواع من الأسلحة أكثر الأسلحة حسماً لها. فقد كان الجيش المسلم يتكون جُلُّه من قبائل البربر وبعض العرب، وحمل هذا الجيش الزاحف الكثير من الغنائم التي غنمها في أثناء الزحف وقبل وقوع المعركة الفاصلة، فكانت هذه الغنائم وبالأعلى المسلمين حيث دب الخلاف بينهم طمعاً بما وقع في أيديهم، وقد طالب بعضهم بالعودة بعد أن نالوا ما نالوه من الغنائم؛ وقد حاول قائدهم عبد الرحمن الغافقي إقناعهم بالتخلي عن بعض من تلك الغنائم حتى يتمكن الجيش من سرعة الحركة وإحلال المحاربين محل الغنائم، وكان رأياً صائباً لم يجد الاستجابة إلا من النزر اليسير من الزعماء، ولم يكن عبد الرحمن الغافقي حاسماً في الأمر خشية التمرد، وبعد قتال مرير بين الطرفين استمر لعدة أيام كاد المسلمون إحراز النصر فيه، إذا بثغرة صغيرة تظهر في المعسكر الإسلامي وإذا بالمندسين في الصفوف الإسلامية يصيحون بقرب وقوع حامية الغنائم في يد العدو فارتد بعض الفرسان إلى الخلف؛ خشية وقوع ما غنموه في يد العدو، واختل ترتيب الجند وبدأ الصراع الداخلي في الجيش الإسلامي، وفي هذه الأثناء أصيب عبد الرحمن الغافقي بسهم، فلقى ربه رحمه الله رحمة واسعة، ولم

يتفق المسلمون على قائد آخر للجيش فهربوا في جنح الظلام، تاركين ميدان المعركة بعد أن خسروا الكثير من خيرة رفاقهم.

هذه المعركة الكبيرة الفاصلة على المستوى العالمي كانت منعطفاً في التاريخ البشري من الناحية السياسية والعلمية والثقافية، وكانت الأسلحة الخفية سبباً رئيساً في هذا المنعطف.

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلهم الله يعلم أنني لم أقل فنذا
 إنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا





قلعة طريفية: فسفة إلى طريف بن مالك الذي قام بحملة استطلاعية
 قبل عبور طارق بن زياد إلى الأندلس.

الاقْتتال الداخلي

هو أول انقلاب يقع في الأندلس وبداية للفتن والاقْتتال الداخلي، فقد كان «عبد الملك ابن قطن» قد تولى حكم الأندلس من قبل هشام بن عبد الملك وسار بجيشه من الشمال الإفريقي ودخل الأندلس، واتجه إلى الشمال؛ راجياً أن يسترد ما خسر أسلافه، فلم يوفق بسبب بعض المنتفعين المحيطين به الذين يُغلبون مصالحهم الشخصية على مصالح العامة، كما أنه كان قاسياً فظاً غليظاً فانفض أهل الأندلس من حوله، وأخذت نار الفتنة تسري بين القبائل والقادة فتم تبديله بعقبة بن الحجاج السلولي من قبل والي إفريقية، وهو رجل عادل كئيب رفع الظلم، وأعاد الحقوق إلى أصحابها، وزجَّ بالولاة الظالمين في السجون، وفي حربه مع النصراني استفاد القائد العربي من السلاح الخفي ضد أعدائه، فقد كان الدوق «موروتس» القاطن في الشمال الإسباني يطمع فيما تحت يد «كارل مارتل» (شارلمان) زعيم الإفرنج ويحسده على انتصاراته، فاتصل بالعرب وتحالف معهم، وغزا الحليفان بعض ما تحت يدي عدوهم من الشمال الإسباني، وعندما علم كارل مارتل (شارلمان) ما فعل العرب مع حليفهم أرسل أخاه «شلد براند» ليتولى رد العرب وحليفهم عن مواصلة الانتصار واللاحق بهم إن أمكنه ذلك، فحقق مأربه حيث هزم العرب شراً هزيمة وعادوا إلى قرطبة، وفي هذه الأثناء مات «تيودريك الرابع» ملك الإفرنج فعاد مسرعاً خشية انقراض خصومه عليه، وفي الواقع أن هذا النهج الذي نهجه عقبة بن الحجاج لم يكن موفّقاً إلا من حيث الإعداد أو التخطيط أو تقييم قدرات العدو، فخسر العرب جرأء ذلك الكثير من قدراتهم المادية والبشرية لتضاف إلى مآسي الأندلس الكثيرة.

حاول عقبة بن الحجاج مع حليفه استرداد ما خسر على يد الإفرنج من أراضٍ، غير أنه أضاف مأساة أخرى إلى مآسي الأندلس، حيث خسر المزيد من الرجال والعتاد والأرض وعاد أدراجه.

كان عقبة بن الحجاج قد ولى عبد الملك بن قطن قيادة جيش الشمال بعد عزله عن الولاية للاستفادة من قدراته القيادية الحربية، غير أن عبد الملك بن قطن كان يتحين الفرصة في ظل ما مُنِّي به عقبة من هزائم متلاحقة، فقام بأول انقلاب في الأندلس

استطاع بموجبه الوثوب إلى السلطة وأسر عقبة وقتله، وهناك من قال: إنه لم يقتل بل أسر حتى توفيه، وأياً كان سبب وفاته -رحمه الله- فما حدث يعد نهجاً جديداً للسطو على القيادة وانتزاعها بالقوة دون أمر من الخليفة أو واليه في أفريقيا.

كانت بذرة الشقاق العرقي والمذهبي قد بدأت في الإنبات على أرض أفريقية، وحملتها الرياح معها لتحط بالأندلس، فقد أخذ البربر في أفريقيا يتلملون من بعض الولاة العرب الذين لم يكن بعض منهم منصفاً للبربر، فكان تفرّد بعضهم بالمال والجاه والسلطان سبباً في محاولات المحرومين تحيّن الفرص لإحداث تغيير ما؛ لعله يزحزح شيئاً مما يروونه جوراً، وكانت مطامع بعض أعيان البربر ومطامحهم رافداً كبيراً لإثارة الفتنة العصبية ولتكون هذه البذرة العصبية وقود نار لحروب داخلية تزيد من مآسي الأندلس.

كان «عبيد الله بن الحبحاب» والياً من قبل الخليفة الأموي على أفريقية، وكانت ثورات البربر تشتعل وتخدم بين الفينة والأخرى في مواطن كثيرة من المغرب الأقصى، وكان عبيد الله هذا ظلوماً جائراً في حكومته، كما ذكره الواقدي ونقله عنه ابن خلدون، فأرسل جيشاً بقيادة «حبيب بن أبي عبيدة النهري» لمحاربة البربر ليقتل ويسبي ويغنم مسلمين مثله، كما عين ابنه إسماعيل والياً على المغرب الأقصى وقد كان قاسياً مثل أبيه، ويقال: إنه قد همّ بمعاملة البربر معاملة بلاد غير المسلمين التي تقع تحت الفتح، فيعرض الأخماس ويأخذهم فيئاً للمسلمين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وما زال المسيء هو الظلوم
وعند الله تجتمع الخصوم
أداموه وينقطع النعيم
لأمر ما تقلبت النجوم

أما والله إن الظلم لؤم
إلى ديّان يوم الدين نمضي
سينقطع التلذذ عن أناس
لأمر ما تصرفت الليالي

فقام البربر بثورتهم والتفوا حول سقاء يقال له «ميسرة المدغري»، وتحقق لهم الكثير من الانتصارات فقد قتلوا والي طنجة، كما عادوا إلى سوس وقتلوا إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، غير أنهم تمردوا على قائدهم ميسرة، فقتلوه ووكّوا مكانه «خالد بن

حميد الزناتي» من قبيلة زناتة البربرية المشهورة، فكان هذا البربري المسلم نداءً لذلك العربي المسلم، فهزمه شرّ هزيمة وخسر المسلمون عرباً وبربراً الكثير من الرجال والعتاد في سبيل عصبية ننته كان الإسلام قد سلّ سيفه للقضاء عليها، لكنّ القائمين على تنفيذ تعاليمه آنذاك بعيدون عن الالتزام بمبادئه.

علم الخليفة هشام بن عبد الملك بما دار في المغرب من حروب بين رعاياه فحاول استدراك الأمر فعزل عبيد الله بن الحبحاب والي أفريقية وعين بدلاً عنه «كلثوم بن عياض القشري» الذي سيّر جيشاً بقيادة ابن أخيه «بلج بن بشر القشري»، ولعله كان متفائلاً باسم بشر ليحمل له البشر بإخماد الثورات ونشر المحبة والسلام بين المسلمين، وهنا تخرج عصبية أخرى لكن هذه المرة بين العرب أنفسهم، فقد توجس العرب القاطنون في أفريقية شراً من هذا الجيش القادم من الشام، فاستقبلوا كلثوماً وابن أخيه بلجاً بشيء من الفتور، فأبدى لهم بلج بن بشر جفاء وخشونة ومعاملة مماثلة فكادت أن تقوم فتنة أخرى لكنّها هذه المرة بين جيشين تابعين للخليفة، غير أنّ الحكمة كانت هي الغالبة فاتحد الجيشان وسارا لقتال إخوانهم المسلمين من البربر، وهذا من غير الحكمة، فانهزم العرب وقتل الكثير منهم بمن فيهم كلثوم وحبیب، أمّا بلج بن بشر فقد فرّ إلى سبته.

شعر الخليفة الأموي بقدرته التمرد البربري، فسير «حنظلة بن صفوان الكلبي» والياً على أفريقية الذي اجتهد في إخماد الثورات غير أنّ مراده لم يتم، فعادت أفريقية إلى نفوذ البربر والموالي دون توحيد وإنما دويلات هنا وهناك لم يكن لها شأن في علو هامة الإسلام، بل كانت وبالاً عليه.



obeikandi.com

الثورات العرقية

انتصار البربر المسلمين على إخوانهم العرب المسلمين كان توطئة وحافزاً لدغدة مشاعر بربر الأندلس الذين كانوا يداً واحدة مع إخوانهم العرب في فتح الجزيرة وجعلها وطناً لهم، لكن العصبية أبت إلا أن تضرم نارها في جسد البلاد الإسلامية.

كان عبد الملك بن قطن والياً على الأندلس وكان قد شهد موقعة الحرّة قبل ستين عاماً، وهي إحدى ضواحي المدينة المنورة، وقد اجتاحتها مسلم بن عقبة المري مرسلأ من قبل يزيد بن معاوية الأموي واستباحها ثلاثة أيام، وقتل من أهلها الكثير، ونهب أموالها، وهتك الأعراس فكانت من أسوأ المواقع في التاريخ الإسلامي وأقبحها، وقد ولدت تلك الواقعة حقداً وكرهاً لدى عبد الملك بن قطن على الشاميين، فعندما استنجد به بلج بن بشر المحاصر في سبته مع بعض من جند الشام بعد هزيمتهم من البربر استجلت صورة موقعة الحرّة بين ناظريه، فأبى مناصرتهم، بل إنه عاقب أحد الزعماء التابعين له بالجلد والقتل بعد أن زودهم ببعض المؤن وكان حذراً في إظهار حقه عليهم؛ خشية الخليفة في دمشق، لكن الأحداث أجبرته على الاستنجد بهم بعدما ضاقت به الحيل جرأ ثورات البربر عليه وانتصاراتهم في أكثر من موقع، فرأى أن من الحكمة الاستعانة ببلج بن بشر مع جنده الشاميين الذين يزيد عددهم عن عشرة آلاف مقاتل والمحاصرين في سبته، فبدأ في مفاوضاتهم في إخلاء سبيلهم وانضمامهم إليه ضد البربر الأندلسيين المسلمين، شريطة مغادرتهم بعد انتهاء مهمتهم بهزيمة البربر، فأعطوه الموثيق على ذلك، فساعدهم في الوفود إليه والانضمام إلى جنده، وأخذاً معاً في قتال إخوانهم البربر المسلمين فكانت الغلبة لهما بعد معارك كبيرة كان وقودها مسلمون وعتاد إسلامي، ورمادها، دور للمسلمين مهدمة، ومصانع وجنان مقطعة، وخراب ودمار في ديار المسلمين بأيدي المسلمين، فكانت مأساة أخرى من مآسي الأندلس الكثيرة.

بعد انتهاء إخماد ثورات البربر طلب عبد الملك بن قطن الكهل، البالغ من العمر تسعين عاماً من بلج بن بشر تنفيذ ما تم الاتفاق عليه ومغادرة الأندلس غير أن بلجاً تمنع وسوّف متشبثاً ببعض الأعدار التي يُخفي تحتها مطامعه، ووقع ما خشي منه عبد الملك

بن قطن، فقد ثار بلج بن بشر وادعى أنه صاحب الحق في الأندلس بوصية من عمه كلثوم، وأخذ بلج في إثارة النعرات فانضم إليه اليمانية ضد المضرية فكأن موقعة الحرّة التي شهدتها عبد الملك بن قطن شاباً يافعاً قريبة الوقوع وهو كهل يبلغ التسعين، وهكذا اقتحم عليه جيش بلج بن بشر داره وقتلوه دون رحمة وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً إلى أن سرقه مواليه بالليل وغيبوه، وبهذا تولى بلج بن بشر مع جموع اليمانيين الولاية بعد اغتصابها من عبد الملك بن قطن المضري.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الناهب فالناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفاء وقلوبهم محشوة بعقارب

وبهذا تبدأ الحروب العرقية العربية العربية أو اليمانية المضرية في فتنة ظالمة وقودها الأبرياء من المسلمين.



الفتنة اليمانية المضرية

قد لا نكون منصفين إن قلنا: إن الفتنة اليمانية المضرية فتنة عصبية فحسب، بل لقد اختلطت فيها الكثير من الأسلحة الخفية المتمثلة في الطمع والحقد والحسد والثأر للذات وحب الانتقام والاستئثار بالمال والسلطان.

يقول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراً لهم ولا سراً لمن جهّالهم سادوا

بعد مقتل «عبد الملك بن قطن» واغتصاب «بلج بن بشر» الولاية، ثار عليه ابنا عبد الملك «أمية» و«قطن»، واجتمع معهم «البلديون» وهم عرب الأندلس وأيضاً كثير من البربر وبعض من العرب اليمانية ممن رأوا في فعل «بلج بن بشر» خرقاً للعهد وتطاولا على صاحب حق، فأصبح الناس في الأندلس معسكرين: أحدهما الشاميون بقيادة «بلج بن بشر» والآخر البلديون والبربر بقيادة ابني عبد الملك بن قطن الذين رأوا في الشاميين دخلاء محتلين لأرضهم، وقامت المعركة بين الفريقين، قتل فيها قائد الجيش الشامي بلج بن بشر غير أن جيشه لم يهزم واستمر في القتال حتى النصر وولّوا عليهم «ثعلبة بن سلامة الجذامي»، وهو ممن كان مع بلج بن بشر في أثناء الحصار في سبتة.

لم يجتمع الناس على ثعلبة فتحولت الأندلس إلى مناطق، استأثر بكل واحدة منها قائد من قادة الجند، ومكثت كذلك برهة من الزمن، غير أن الطمع في الغلبة جعل الفريقين يعودان للقتال مرة أخرى، فانهزم الشاميون في بادئ الأمر، غير أنهم لم يلبثوا أن استجمعوا قواهم وحولوا الهزيمة إلى نصر ساحق، وقد أضمر «ثعلبة بن سلامة» قتل من وقع تحت يده من الأسرى العرب البلديين والبربر وكانهم ليسوا إخوانه المسلمين، وفي هذه الأثناء قدّم «أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي» موعيناً من قبل والي أفريقية، فأحسن لثعلبة ولأبناء عبد الملك بن قطن وغيرهم من القادة، وأكرم رفاذتهم فاستقامت الأمور له برهة من الزمن، غير أن عصبية القبيلة أبت إلا أن تضيف إلى الأندلس مأساة أخرى لتزيد من جرح مكلوم أضرت به سهام أبنائه، فقد كان كما قال الرازي أعرابياً

عصبياً أفرط في التعصب لقومه «اليمانية» وتحامل على المضرية وأسخط قيساً، وأمر في بعض الأيام بالصُّمَيْل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن وهو من قادة القيسية بإخراجه من مجلسه، فتنقح الصُّمَيْل، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها، فألب قومه على أبي الخطار، وانضم إليه بعض اليمانية الساخطين على أبي الخطار؛ إما لحسدهم له أو انتقاماً لأنفسهم بسبب عزلهم أو منعهم من الغنيمة أو أعطيات بيت المال، فخلع أبو الخطار؛ وأدخل السجن وأبدل به ثوبة بن سلامة الجذامي، وهو يمني لكنه كان يحقد على أبي الخطار لأنه عزله عن ولاية أشبيلية، لكنَّ أبا الخطار استطاع الهروب من السجن وجمع حوله بعضاً من اليمانية لمحاربة القيسيين بقيادة الصُّمَيْل، واليمنيين بقيادة ثوبة، غير أنه وقع في الأسر وعفا عنه ثوبة بعد أن تفرق الناس عنه.

وبعد ما يقرب من سنتين مات ثوبة فتنازع القادة الأمر، فأصرَّ اليمانيون أن تبقى القيادة فيهم لكون ثوبة يمانياً، وأصرَّ المضريون على أن تكون القيادة للصُّمَيْل لكونه قيسياً مضرياً، واستمر الناس في فوضى عارمة دون ولي أمر ولم يكن باستطاعة الخليفة في المشرق فعل الشيء الكثير، فقد ضَعُفَت الدولة الأموية وعظُم أمر الدعوة العباسية.

واتسق الفريقان على تدويل السلطة بينهم كل عام، فكان «يوسف بن عبدالرحمن النهري» محل إجماع من الطرفين؛ ليكون والياً لسنة الأولى، وقد بيَّت يوسف الغدر، فلم يُدوّل السلطة وأمضاها تحت يده، فاستسلمت اليمانية للغلبة وركنوا للمسالمة مع حقد دفين كان يتأجج في قلوبهم ينقضون به على يوسف كل ما سنحت لهم سانحة.

هذه المدة العجيبة من تاريخ الأندلس تُبَيِّن ذلك الكمّ الهائل من الخسائر البشرية والمادية والمعنوية والأرض والعلم والثقافة وتتوير الأفتدة والقلوب.

لقد حدثت حروب طويلة مضمّنية بعد مدة من الركود فكانت حرباً ضروساً بين المضرية واليمانية أدت إلى فناء الكثير من الرجال والسلاح، حروب سببها الأحقاد والقبلية، والعصبية والحسد، وحب الذات والاستئثار بالسلطة، وعدم جمع الكلمة، والغاية تحقيق مآرب شخصية دون مصالح الأمة، ليستمر الحال على هذا المنوال إلى حين دخول «عبدالرحمن الداخل» أرض الأندلس.

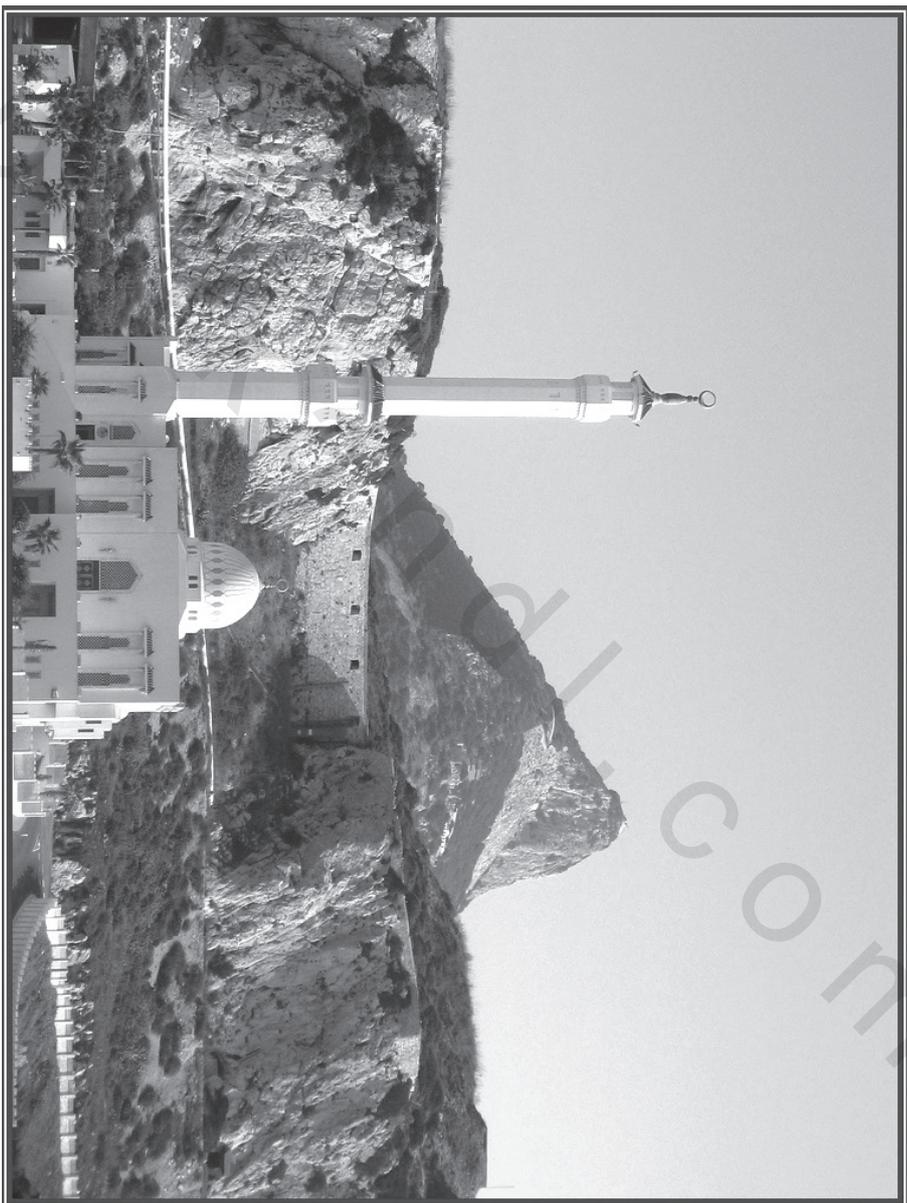
لقد ذهب هؤلاء قصد إعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام وإسعاد البشرية جمعاء دون تفريق بين جنس أو لون أو عرق أو دين كما أمرهم ربهم وليدعوا إلى كلمة سواء، فإذا بهم يتنازعون السلطات ويتقاتلون في سبيل الانتقام والحقد وغيره من الأسلحة الخفية التي كان وقودها الناس والممتلكات، وهذه إحدى مآسي الأندلس الكثيرة.

كانت أوروبا في ذلك الحين في حاجة إلى العلم والمعرفة، حيث كانت تعيش في ظلمة الجهل، وكان المسلمون قادرين على نقل معارفهم ومعارف من سبقهم من الأمم إليها ونشر ثقافتهم بها، لكنهم في تلك الحقبة وبدلاً من نشر الخير تقاتلوا فخسروا الدنيا والدين، ليتأجل ذلك المد العلمي ويتأخر إلى حين.

كما أن هذه الحقبة قد أضاعت على المسلمين الكثير من المنجزات التي كان بالإمكان تحقيقها في أوروبا، وليتهم قرؤوا آياتاً من الشعر لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وعملوا بها، فهو القائل:

أيها الفاخر جهلاً بالنسب	إنما الناس لأم ولأب
هل تراهم خلقوا من فضة	أم حديد أو نحاس أم ذهب
بل تراهم خلقوا من طينة	هل سوى لحم وعظم وعصب
إنما الفخر لفضل ثابت	وحياء وعضاف وأدب





منظر لجبل طارق الذي كان نقطة عبور المسلمين إلى الأندلس، وفي سفحه مسجد بني حديثا.